

الإمامُ النُّورسيّ وظُهُورُ القومِيَّاتِ بَيْنَ الأَصَالَةِ والتَّحَدِّي: دِرَاسَةٌ تَارِيخِيَّةٌ

✱ لَيْثُ سَعُودِ جاسِم

أَهَمِّيَّةُ البَحْثِ:

تتجلى أهمية البحث في أنه يتناول بداية نقلة فكرية خطيرة في التاريخ الإسلامي قامت باسم التجديد، نقلة أعقبتها تغييرات خطيرة في بنية المجتمع الإسلامي فكرياً وسياسياً واجتماعياً وجغرافياً، وهذه التغييرات هي:

أولاً: تغيير في النظام السياسي من نظام الخلافة الإسلامية والدولة الواحدة إلى الدولة العلمانية والتفتت الجغرافي السياسي (الجيوبوليتيكي).

ثانياً: تغيير في الإطار الفكري من العالمية الإسلامية إلى الدول الإقليمية والقومية العرقية.

ثالثاً: تغيير في النظام الاجتماعي من النظام الاجتماعي الإسلامي إلى تغييرات في الأخلاق والسلوك على نطاق الفرد والمجتمع متخذة النموذج الغربي مثلاً.

ويسعى هذا البحث لإبراز دور الإمام النورسي في هذه المتغيرات المفصلية والذي استحق عليه لقب المجدد، فضلاً عن بيان منهجه في التعامل مع الواقع الذي أخذ صوراً عدة، وبحسب المتغيرات ثم بيان موقفه من قضية التجديد وفهمه لها الذي يتمثل في:

- إدراك العوامل والتحديات التي تواجه الأمة.
- محاولة وضع الحلول لمواجهة كل مرحلة وأطلق عليها مرحلة سعيد القدم وسعيد الجديد التي بدأت سنة ١٩٢٦.

✱ دكتوراه في التاريخ من جامعة السند ١٩٩٢، باكستان؛ أستاذ مشارك في قسم الدراسات القرآنية والحديثية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

ووضع لها إطاراً في فلسفة التغيير الذي يشمل:

- أهمية التنمية الفكرية الإسلامية في مواجهة التسلل العلماني من خلال العمل المؤسسي
ببناء جامعة الزهراء، والعمل على إنشاء المدارس التي توازي متطلبات العصر.

- وعي المفردات الفكرية الغربية وفحصها واختيار ما يناسب منها وترك ما لا يناسب.

- تبني فكرة الجامعة الإسلامية من خلال الاتحاد المحمدي لتحقيق الترابط الإسلامي

بين قوميات المجتمع.

- خطاب الأمة بخطاب موحد موجه إلى قومياتها المتنوعة ليواجه تحدي التفتيت

للدولة الواحدة.

- بناء الشخصية الإسلامية بمنهجية تناسب ومتطلبات التحدي الغربي من خلال البناء

العلمي والسلوكي.

وقد استخدم البحث المنهج التاريخي القائم على دراسة الوثائق وتحليلها والمنهج

الوصفي الذي يصف الظاهرة من خلال مسارها التاريخي وملابساتها. وقد حاول

البحث أن يعتمد على المصادر الأصلية وبخاصة كتابات الأستاذ النورسي في رسائله

والتي جمعت مؤخراً في أعمال كاملة، مثل: المكتوبات، والشعاعات، والكلمات،

والصيقل، والملاحق، وإشارات الإعجاز، وسيرته الذاتية وغير ذلك. وما كتب عنه

من مؤلفات وبخاصة ما كتبه الأستاذ إحسان قاسم الصالحي مترجم أعمال الإمام

النورسي إلى العربية والذي قام بجهد مشكور في خدمة تراث الإمام النورسي،

وكذلك الأستاذ أورخان محمد علي الباحث و الصحفي في كتابه (سعيد النورسي

رجل القدر)، وما نشره الدكتور عثمان علي - الأستاذ في قسم التاريخ بالجامعة

الإسلامية ماليزيا سابقاً - من وثائق إنجليزية مهمة فيما يتعلق بالأكراد وعلاقتهم

بالدولة العثمانية، فضلاً عن العديد من الكتب التي رصدت نشأة القوميات بعامة

مثل كتاب (اليقظة العربية) لجورج أنطونيوس، و(تركيا الفتاة) لرامزور، وغيرها من

المؤلفات مما سنجدّه مبثوثاً في هوامش البحث.

ولعل البحث بهذا الجهد المتواضع قد ألقى شعاعاً من الضوء على ظهور القوميات

ونشأتها والدوافع وراء ذلك وأثرها في تفتيت الدولة العثمانية ونشوء العلمانية في

المجتمع الإسلامي.

شك أن القضاء على الدولة العثمانية قضاءً تاماً هو من أهدافنا التي نريد تحقيقها" ٤.

وقد ألف أحد وزراء رومانيا (Djuvara) كتاباً بعنوان: (Cent Projets Pour la Partage de la

Turquie) مائة مشروع في تقسيم تركيا، وقال فيه "إن أصل العداوة المزمنة التي يشعر بها

الأوروبيون للأتراك ويميلون أبداً من أجلها إلى حصرهم في آسيا هي راجعة إلى العداء الشديد

الواقع بين النصرانية والإسلام... وكان الوزراء ورجال السياسة وأصحاب الأقلام يهيئون

برامج تقسيم هذه السلطنة كما تقدم وصف كل برنامج بعينة مما يناهز مائة مشروع" ٥.

وعلى ضوء ذلك تغلغل الأوروبيون عن طريق الامتيازات الأجنبية التي صارت ذريعة للتدخل

في الشؤون الداخلية باسم حماية الأقليات غير المسلمة أي اليهود والنصارى، وإدارة شؤونهم

قانونياً، وتجارياً، وديناً، وسياسياً ٦، واستبعتها إثارة القوميات والأقليات وبخاصة الأرمن، ورافق

هذا كله نشاط في دوائر عدة مثل نشر المدارس التبشيرية لتكون طريقاً للتغريب من خلال طلابها

وخرجيها الذين أصبحوا قادة بعد ذلك ٧، ويسند ذلك حركة إعلامية مكثفة عن طريق الصحافة

بخاصة، والتي كان أغلبها تحت إدارة نصرانية أو يهودية، فضلاً من المتأثرين بأوروبا والسائرين في

ركابها من شتى الشعوب الإسلامية مثل الترك والعرب والألبان، والكرد وغيرهم، وقد أحصى

(الفيكونت فيليب دي طرازي) ذلك في كتابه الهام (تاريخ الصحافة العربية) حيث بلغ عدد

الصحف العربية التي ضمها كتابه (٣٢٥٠) صحيفة من سنة (١٨٥٨ - ١٩٢٩م) في جميع

أنحاء العالم وقد رتب لها فهراس وافية ألحقها بكتابه ٨.

٤ انظر: أنور الجندي، العربية والإسلام (القاهرة: نشر دار الاعتصام، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٦م) ٤٣٠. نقلاً عن

خطاب بلفور رئيس البعثة البريطانية إلى الولايات المتحدة في ١٨/٤/١٩١٧م. وانظر: بول شتمز، مصدر سابق: ٣٢.

٥ انظر: Lothrop Stoddard، حاضر العالم الإسلامي، نقله للعربية الأستاذ عجاج نويهض مع تعليقات

أمير البيان شكيب أرسلان (بيروت: نشر دار الفكر، ط ٣، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م) ٣/٢٨١، ٣٢٣.

٦ انظر: محمد جميل بيهم، فلسفة التاريخ العلماني (بيروت: مكتبة صادر، ١٣١٤هـ - ١٩٢٥م) ٢٩٢، وانظر:

مصطفى طوران، أسرار الانقلاب العثماني، ترجمة كمال خوجة (نشر دار الإسلام، د. مكان، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م)

١٢ - ١٤، وانظر: صموئيل اتينجر (محرراً)، اليهود في البلدان الإسلامية، ترجمة الدكتور جمال الرفاعي مراجعة دكتور

رشاد الشامي (الكويت: سلسلة عالم المعرفة ١٩٧، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م) ١٠-١٢، ٤٧-٤٨.

٧ انظر: ندم هزار، المدارس التنصيرية (استانبول: نشر مركز البلقان للدراسات والأبحاث العلمية، ١٤١٥هـ -

١٩٩٤م) ١٥ - ٣٥. وانظر: جورج أنطونيوس، نقطة العرب، ترجمة د. ناصر الدين الأسد، د. إحسان عباس،

(نيويورك - بيروت: نشر مؤسسة فرانكلين، ١٩٩٢م) ١٦٤ - ١٦٦.

٨ انظر: الفيكونت فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية (بيروت: المطبعة الأدبية، الأجزاء: ١ - ٣، ١٩١٣).

ونشر المطبعة الأمريكية ببيروت، الجزء الرابع (١٩١٤م)، وأعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثني ببغداد (بدون تاريخ): ٤

هـ، ٤٩٦، ٥١. وقد ساعد الفيكونت فيليب دي طرازي في عمله الضخم هذا كونه أميناً لداري الكتب والآثار في

بيروت، وعضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق وقضى أربعين سنة من عمره في تأليفه (١٨٩٣ - ١٩٣٣م).

آسيا وإفريقيا، وظهرت أشهر الحركات القومية في الدولة العثمانية مثل: القومية العربية، والقومية الطورانية التركية، وقد قامت هاتان الحركتان بأخطر دور تغيير في تاريخ الدولة العثمانية في النواحي الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية وأما القومية الكردية فجاء تأثيرها متأخراً عن القوميتين الأخيرتين ١٣.

ومن الوسائل التي استخدمها الأوروبيون لتفتيت الدولة العثمانية إثارة النعرات القومية واستثارة الأفكار الجاهلية كما وصفها النبي ﷺ بقوله ١٤: «دعوها فإنها منتنة. قالوا: ما هي يا رسول الله؟ قال: العصبية الجاهلية».

ونتيجة لهذا فقد استطاع الاستعمار ضرب وحدة المسلمين وتمزيق كيان دولتهم العثمانية عن طريق الأحزاب القومية، فتكونت في الشرق الإسلامي دويلات لكل منها كيان منفصل وحدود سياسية مرسومة وانتقل الولاء لله وشريعته إلى الولاء للأرض والقوم، وهلل الأوروبيون لذلك حتى قال قائلهم (إمري ريفر) في كتابه (قضية الإسلام) ١٥: "إن الوحدة التي احتفظ القرآن بها قروناً بين الشعوب الإسلامية المختلفة الأصول قد ذهبت وصار الشعب الإسلامي قوميات شتى".

واستخدموا الصحافة ونشر الكتب وسيلة لترويج الشعور القومي من ذلك إحياء الكتب التاريخية التي تعظم تاريخ الأجداد من عرب وترك وهنود وفرس وأكراد وغيرهم ١٦.

ومن تلك الكتب التي بدأت بترويج الفكر القومي بأنواعه:

- كتاب (تاريخ الترك والمغول من أقدم الأزمنة إلى سنة ١٤٠٥م): ألفه الكاتب اليهودي (ليون كاهون) ذكر فيه مآثر جنكيز خان وتيمورلنك وساعدت الأكاديمية الفرنسية على نشره عام (١٨٩٦م)، وجعل هذا الكتاب أساساً للقومية الطورانية ١٧.

١٣ نفس المرجع: ٢١٣، وانظر الموسوعة الثقافية: ٧٧٦.

١٤ انظر: جورج أنطونوس: يقطعة العرب: ١٦٤ - ١٦٨، وانظر مجدي عبد المجيد الصافوري، سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية: ٢١٤ - ٢١٦.

١٥ أنور الجندي، معالم تاريخ الإسلام المعاصر (مصر: دار الإصلاح للطبع والنشر، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م) ٢٣٥-٢٣٧.

١٦ مثل مجلة (الاستقلال العربي) في فرنسا لنجيب عازوري الماروني اللبناني الذي دعا إلى إحلال رابطة الجنسية بدل الدين، وانظر: الموسوعة الصحفية العربية (تونس: نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٧م) الجزء السادس، المجلد الأول: ٤٣٣. وصحيفة (مشورة) باللغة التركية لمؤسسها أحمد رضا وهو من قادة الاتحاد والترقي وكانت تدعو للطورانية، وغيرها من الصحف التي أحصاها صاحب تاريخ الصحافة العربية فيليب طرازي ٢٧٤/٢ - ٢٧٤.

١٧ انظر مجدي عبد المجيد الصافوري، المصدر السابق: ٢١٨ - ٢١٩. وانظر: أنور الجندي، معالم التاريخ

القوميات المحلية والإقليمية الضيقة وأما إطار الطورانية الفكري فهو تجديد انتساب الشعب التركي إلى أصوله الطورانية، والإيمان بأن سبيل بعث الشعب التركي هو اتحاد هذه الشعوب التي تمت إليه بصلة القربى، وأن حركة الطورانية هي المنقذ للأتراك من الضياع، وأن يسيروا على هدى جنكيز خان، وتيمورلنك من أجدادهم العظام ٢١، وقد بدأ بعض الكتاب يصدرن الكتب والمنشورات أمثال (أحمد اغايف) التاري عام (١٣١٢-١٧٨٩م) متأثرين في كتاباتهم بالثورة الفرنسية، وانتشرت هذه الفكرة حول حوض نهر (الفولغا) أولاً وإلى تركمان أواسط آسيا ووصلت إلى استانبول بعد ذلك وتبناها حزب "الاتحاديون" وأصبحت شعارهم.

وكان كثير من دعاة القومية الطورانية من غير الأتراك مثل اليهودي الهنغاري (قمرى) يدعون الأتراك إلى توثيق الصلة بأتراك وسط آسيا، لأن الأتراك قد ابتعدوا عن أصولهم مدة طويلة. ثم ابتكر نظرية خطيرة تقول: "إن الإسلام يتناقض مع فكرة الجنس وأنه هو الذي حال دون نشوء حضارة الأتراك" ٢٢.

وتم تشكيل الجمعيات القومية في أماكن متعددة داخل الدولة العثمانية وخارجها وشمل تشكيل الجمعيات القطاعين المدني والعسكري وكان الطلبة هم طليعة هذه الجمعيات ٢٣.

وكانت محصلة هذه الجمعيات (جمعية الاتحاد والترقي) والتي كانت ٢٤ تضم في صفوفها المدنيين والعسكريين وجعلت ميدان عملها في سلايك ولذلك "فإن المحافل الماسونية في تلك المدينة استمرت تعمل دون انقطاع بطريقة سرية طبعاً، وضمت إلى عضويتها عدداً ممن كانوا يرحبون بفكرة خلع السلطان عبد الحميد ... ولذلك استخدمت جمعية (الاتحاد والترقي) بعض المحافل أو جميعها لتكون محلات للاجتماع" ٢٥.

٢١ انظر: مجدي الصافوري المرجع السابق : ٢١٥، ٢١٧، وانظر: مرفق نبي المرجح: صحة الرجل المريض (بيروت: دار البيارق، ٨ط، ١٩٩٦) ص ٢٠٠.

٢٢ انظر شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي: ١٠٨ - ١١٩، د. أحمد النعيمي، اليهود في الدولة العثمانية (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤١٨ هـ - ١٩٨٨م) ١٦٢-١٦٣.

٢٣ انظر: M. Sukru Hani Oglu, Osmanli Ittihad, p. 16-26.

٢٤ انظر:

Osmanli Ittihad ve Terkki Cemiyeti ve Jon Turkluk, (1889-1902), Iletisim Yayinlari, Istanbul- 1985, p. 9-16.

وانظر د. محمد حرب عبد الحميد، السلطان عبد الحميد (نشر دار الفكر نقلاً عن مذكرات إبراهيم تيمو - أحد مؤسسي تركيا الفتاة) ٢٧٨ - ٢٨١، وانظر: أورهان محمد علي، السلطان عبد الحميد (الكويت: دار الوثائق، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م) ٢٧٠ - ٢٧٥.

٢٥ أرنست، أ. رامزور، تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م، ترجمة الدكتور أحمد صالح العلي (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٦٠م) ١٢٣، ١٢٤.

ثم هرب بعض قادة الاتحاد والترقي إلى الخارج وبخاصة باريس التي احتضنتهم منذ بداية تشكيل تركيا الفتاه، ومن باريس أصدروا جريدة (مشورة) و(الميزان) التي استمرت تهاجم السلطان فضلاً عن الرسائل، وكانت الدول الأجنبية تساعدهم في توزيع جرائدهم وإدخالها إلى الدولة العثمانية ٣١.

وقد قام المحفل الماسوني بمساعدتهم وبخاصة (المشرق الأعظم الفرنسي) الذي قرر إزاحة السلطان عبد الحميد ... "ويمكن القول بكل تأكيد أن الثورة التركية كلها تقريباً من عمل مؤامرات يهودية! ماسونية" ٣٢ ويقول سيتون واطسون في كتابه *The Rise of Nationality in the Balkan* ٣٣: "وأن أعضاء تركيا الفتاة ... والثورة التي أنجزوها كانت نتاج عمل مدينة واحدة وهي سلافيك .. إن العقول الحقيقية للحركة كانت عقولاً يهودية أو يهودية مسلمة وقد جاءت مساعداتها المالية من أغنياء الدونمة أو يهود سلافيك ومن الرأسماليين العالميين (الماسونيين) في فيينا وبودابست وبرلين وربما لندن وباريس أيضاً".

وقد كان الإطار الفكري للجمعية الاتحاد والترقي هو الماسونية وهي لا تعترف بالأديان وتنطلق من الفلسفة الوضعية والعلمانية ومع ذلك استخدم الثوار الاتحاديون الدين لمحاربة السلطان عبد الحميد وثاروا عليه باسم الدين" ٣٤.

الثورة والخلع والإلغاء:

ونتيجة للظروف التي مرت بها الدولة العثمانية وما تعانیه من مشاكل داخلية، وخارجية، وسياسية، واقتصادية، وجد الأعداء فرصتهم السانحة فقرّر (محفل الشرق الأعظم) في عام ١٩٠٠م بالتعاون مع الدول الأوروبية خلع السلطان عبد الحميد الثاني، وأدرك السلطان عبد الحميد المؤامرة واستمر يناور ويداور لإفشال هذا المخطط بأقل الخسائر، وبمحاولة احتواء (جمعية الاتحاد والترقي) اليد التي أريد لها أن تخلع السلطان.

٣١ انظر: رامزور، نقلاً عن Paul Fesch: ٦٣، ١٧٢، وانظر أورخان محمد علي، المرجع السابق، ص ٢٧٨

نقلاً عن مذكرات إبراهيم تيمو، وانظر: محمد حرب عبد الحميد، السلطان عبد الحميد، ٢٧٦، ٢٧٩.

٣٢ رامزور المصدر السابق: ١٢٦، وانظر لويس شيخو: السر المصون في شيعة الفرمايون (بيروت: المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ١٣٣٧هـ - ١٩١٠م) الكراس السادس: ٣١ - ٤٢.

٣٣ انظر أورخان محمد علي: المصدر السابق: ٢٨٥ - ٢٨٦.

٣٤ انظر محمد حرب عبد الحميد، السلطان عبد الحميد، نقلاً عن M. Sukru: ٢٨٣، وانظر رامزور: ١١٩، ١٢٣، ١٢٦. وانظر الوثيقة المتبادلة بين السفير البريطاني في استانبول (جيرالد لارثر) في ٢٩/٣/١٩١٠م وبين وزير خارجية بريطانيا (شارل هارودينغ) وقد نشر هذه الرسالة وقدم لها (Elie Kidaurie) أستاذ علم السياسة بجامعة لندن في كتابه الصادر بلندن سنة ١٩٧٤م، ورقم الرسالة في الوثائق الخارجية البريطانية (F.O.800/193A) ترجم الوثيقة الدكتور محمد توفيق حسين إلى العربية ونشرت في مجلة آفاق عربية ببغداد، العدد ٩، لشهر ٣، تحت عنوان "دور الماسونية في خلع السلطان عبد الحميد"، انظر: أورخان محمد علي، المرجع السابق: ٢٩٣ - ٣١٢.

ثم نقل وأسرته وبعض حاشيته إلى سلاطيك منبع الفتن تجاه دولة الخلافة زيادة في إيذاء السلطان نفسياً. وبقي على ذلك حتى نقل إلى استانبول وكانت وفاته فيها سنة ١٩١٨م، ورفض مفارقتها وبوفاته ختمت الخلافة حقيقة لأن كل من خلفوا السلطان عبد الحميد من السلاطين كانوا رموزاً فقط والهيمنة الحقيقية لجمعية الاتحاد والترقي الحاكم الفعلي للدولة العثمانية ٣٨.

وفي ٢٠/١٠/١٩٢٧م أعلنت الجمهورية العلمانية وألغيت اللغة العربية وأغلقت المدارس الدينية وغير الأذان إلى التركية ومنعت النساء من ارتداء الحجاب، وأمر الرجال بلبس الملابس الأوروبية بدلاً من الملابس العثمانية وطردت أسرة آل عثمان في ٢/٣/١٩٢٤م حيث ألغيت الخلافة من قبل مصطفى أتاتورك.

وبدأت رحلة العلمانية التي كشرت عن أنيائها بحملة عملية التتريك، والضغط على الأكراد والعرب القوميين...!! حلفائهم بالأمس وبدأ الاستبداد الحقيقي الذي انتظره دعاة القومية من دعاة الإصلاح فكان الإصلاح هو الانسلاخ عن الإسلام ليس إلا...!! وبدأت رحلة عذاب سكان البلاد في ظل دولة الإصلاح والحرية والثورة الأتاتوركية.

القومية العربية نشوؤها وتطورها

العرب مادة الإسلام، وقد محض العرب ولأهم من أول يوم لله تعالى وللإسلام لا للجنس، ولا القبيلة، ولا الأسرة ٣٩. تنزل القرآن مخاطباً عم النبي ﷺ بقوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ...﴾ ٤٠، ونقر القرآن من التعصب للأسرة والقبيلة والوطن والمال. ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ٤١.

٣٨ انظر: الدكتور محمد حرب عبد الحميد، مذكرات السلطان عبد الحميد، نقلاً عن فحى أوقيار، رجل في ثلاثة عهود (استانبول، ط ١، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) ٢٠٧ - ٢٠٩، وانظر تفاصيل ذلك عن الأميرة عائشة في كتابها: والذي عبد الحميد: ٢٤٤ - ٢٨٦، ٣٤٦ - ٣٥١، وانظر: أورشان محمد علي، السلطان عبد الحميد حياته و أحداث عصره (الكويت: دار الوثائق، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م) ٣٤٦ - ٣٥٢.

٣٩ انظر محمد ثابت الشاذلي، المسألة الشرقية : ٧٥.

٤٠ سورة المسد، الآية رقم ١.

٤١ سورة التوبة، الآية ٢٤.

"وهذه كانت في مدة ستة قرون مساعي المسيحيين ومحاولاتهم نحو السلطنة العثمانية التي كانت من أعظم الممالك التي عرفها تاريخ البشرية، وإن لم يكن قد تنفذ برنامج واحد من هذه البرامج الكثيرة بخلافه فما زال تكرر هذه المساعي، وتداول هذه الأفكار في كل أوروبا خلفاً عن سلف يعمل عمله تدريجياً وينقض من بناء السلطنة التركية التي انهارت جوانبها" ٤٥.

ومن الوسائل التي استعملوها:

أولاً: الترويج لاستقلال الوطن العربي عن دولة الخلافة العثمانية وإسناد الخلافة إلى شخص عربي قرشي...!! فالأئمة من قریش...!! وروج لذلك نجيب عازوري (ت ١٩١٦م) النصراني من خلال كتابه (اليقظة العربية في آسيا الصغرى) حيث دعا لإحلال رابطة الجنسية والوطنية بدلاً من رابطة الدين. وقد أسس المحفل الماسوني الإيطالي بمصر ٤٦.

وضرب على الوتر نفسه إبراهيم اليازجي وناصر اليازجي. من خلال صحفهم والمثقفون الذين نشروا كثيراً من الكتب التي تمجد العرب وتشيع أفكار الثورة الفرنسية لإعطاء إطار فكري للحركة الجديدة ٤٧.

ثانياً: المدارس التنصيرية: كان لها دور خطير وقد انتشرت في أرجاء الدولة العثمانية مستغلة السماحة المطلقة والمغالاة ٤٨ باعترااف النصارى أنفسهم، حيث أسست أول مدرسة أوروبية تنصيرية في بيروت سنة (١٨٤٣م) من قبل الأمريكان البروتستانت وأسسوا المدرسة الأمريكية في استانبول وأسست (روبرت كولج) سنة (١٨٦٣م) وكانت كلتا المدرستين محضناً لرجال القومية وقادتها في بلاد العرب والثانية تخرج منها قادة اللجان البلغارية الذين قادوا التمرد ضد الخلافة العثمانية. ثم كانت هاتان المدرستان محلاً لتفريخ كل الأحزاب القومية العلمانية في المناطق بعد ذلك ٤٩.

٤٥ تعليقات شكيب أرسلان على كتاب حاضر العالم الإسلامي: ٣/٣٢٤.

٤٦ انظر: أحمد الشوابكة، حركة الجامعة الإسلامية: ١٠٨ - ١١٠، وانظر: مجدي الصافوري، مرجع سابق: ١٢١، ١٢٢.

٤٧ انظر: نزيه كباره، عبد الرحمن الكواكبي (طرابلس - لبنان: مطبعة جروس بروس، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م) ٢٤-٢٥ ومن الشخصيات الأخرى جورج أنطونيوس (ت ١٩٤٢) بطرس البستاني (ت ١٨٨٣م) وكان مترجماً في السفارة الأمريكية مع ابنه سليم البستاني.

٤٨ انظر: تعليق شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي: ٣/٢١١ - ٢١٢.

٤٩ انظر: نديم هزار، المدارس التنصيرية (استانبول: مركز البلقان للدراسات والأبحاث العلمية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م) نقلاً عن د. بيرم كودامان، نظام التعليم في عهد عبد الحميد: ٦، ١٢، وانظر: جورج أنطونيوس، يقظة العرب: ٩٧ - ٩٩.

يقول: "دعونا نقدم حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم الآخرة..." وكان يقول: "التمييز بين الدين والدولة في عصرنا هذا أصبح من أعظم مقتضيات الزمان والمكان...". فضلاً عن مهاجمته للعثمانيين وإنكار فضلهم وكيل التهم لهم وجعلهم مسؤولين عن ضياع الأندلس ١١٠٥!!

ومحصلة هذا التخطيط يمكن تقسيم التيار القومي إلى:

أولاً: تيار يسعى أفراداه لإقامة خلافة عربية مستقلة تقوم مقام الخلافة العلمانية ويمثل هذا الاتجاه الكواكبي، وشريف مكة، وطالب النقيب نقيب أشرف بغداد ٥٥.
ثانياً: تيار يطالب بالإصلاحات الخاصة بالبلاد العربية ولا يطالب بالانفصال عن الدولة.
ثالثاً: تيار يدعو للاشتراك مع أحرار الأتراك للمطالبة بإصلاحات عامه تشمل الولايات العثمانية وقد مثل هذا التيار بعض السياسيين مثل محمود شوكت (ت ١٩١٣م) وعزيز علي المصري (ت ١٩٥٩م) ٥٦.

ثم إن الأمور بعد ذلك ساءت بين الطورانيين والجمهوريين وبين الولايات العربية وفقدت تركيا كثيراً من ولاياتها ولم يتبق إلا تركيا بقسميها الأوروبي والآسيوي وقيدت بمعاهدات تنازلت فيها عن كثير من ولاياتها. فضلاً عن احتلال أجزاء من الدولة العثمانية من قبل الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين وبخاصة مصر والشام والعراق وشمال إفريقيا. ووعدت حلفاءها الذين أعانوها ببعض الغنائم وبخاصة وعد الشريف

٥٤ انظر: نزيه كباره ، عبد الرحمن الكواكبي : ٢٤ - ٢٥ ، ٦٦ ، ١٢٥ ، والذي أثبت من خلال المقارنة أن كتاب (طبائع الاستبداد) مترجم عن كتاب بالعنوان نفسه للمستشرق الإيطالي ألفياري فيتوريا (Apfieri Vittoria) حيث تابعه الكواكبي في أغلب فصوله ، وانظر: جورج أنطونيوس: ١٢٠ - ١٢٦.
وانظر: وميض جمال عمر نظمي، شيعة العراق وقضية القومية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م) ١٧٩ - ١٨٢، وانظر: جان داية، الإمام الكواكبي، فصل الدين عن الدولة (المملكة المتحدة: دار سورافيا للنشر، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) ٤٣، وانظر: الكواكبي، أم القرى (بيروت: دار الرائد العربي، ط ٢، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) ١٦٨ - ١٧١. وانظر: سامي الدهان ، عبد الرحمن الكواكبي: ٣٦-٣٧ . وانظر: د. فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م) ٢٩٢.

٥٥ انظر: نزيه كباره ، مرجع سابق : ٨٧ ، وانظر: ساطع الحصري ، محاضرات في نشوء القومية (بيروت: دار العلم للملايين ، ط ١، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م) ١٨٣ - ١٩٧.

٥٦ انظر: د. محمد حرب عبد الحميد، السلطان عبد الحميد: ٢٧٨ ، ٢٨٢ - ٢٨٣.

والأكراد قبائل غلب عليهم العمل في الزراعة وكان لشيخ القبيلة الهيمنة الإدارية وشاعت بينهم الطرق الصوفية، فظهر فيهم التدين الفطري لذلك كان ولاؤهم للدولة العثمانية ولاءً نابعاً من هذا التدين، بل كانوا جيشاً غير نظامي إلى آخر رفق في دولة الخلافة العثمانية ٦٢.

وقد كان للأكراد دور سياسي وعسكري بارز في عموم التاريخ الإسلامي فضلاً عن دورهم العلمي والثقافي، وقد تولى (عماد الدين زنكي) السلطنة وكذلك (صلاح الدين) فكانت الدولة الأيوبية لها بلاؤها الحسن في التاريخ الإسلامي وبخاصة في صد الهجمات الصليبية، حيث كانت نهاية الصليبية في الشام على يد صلاح الدين الأيوبي، وانساحت القبائل الكردية المسلمة في العالم الإسلامي مثل مصر والشام واليمن وغيرها واستقر كثير منهم في هذه المناطق، ولا زال الكثير من الذين أصولهم كردية يتلقبون (بالكردي) مع عدم معرفتهم باللغة الكردية ٦٣.

وقد عاش الأكراد في ظل دولة الخلافة العثمانية شريحة مهمة من شرائح المجتمع المسلم يتنقلون في بقاع الدولة المسلمة وقد قسمت كردستان إلى أقسام إدارية تسمى (بالسنجق) وثبت على كل سنجق أمير المنطقة الكردي أو تأتي بمن تراه مناسباً ٦٤.

وكان للأكراد دور مهم في خوض الحروب للدفاع عن دار الخلافة فاشتركوا في الحرب الروسية العثمانية (١٨٧٧م)، ولكن كانت لهم بعض الإشكالات مع الدولة العثمانية وبعض الاحتكاكات المسلحة وهي في حقيقتها لم تكن تمرداً ورفضاً للترك كما حاول بعض المستشرقين تشويه هذه الصورة، وإنما كانت رفضاً لبعض الإجراءات الإدارية

٦٢ د. أحمد النعيمي، الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا حاضرها ومستقبلها (عمان الأردن: دار البشير، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م) ٧٨.

٦٣ انظر: د. سوادى عبد محمد، الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في بلاد الجزيرة خلال القرن السادس الهجري (بغداد - العراق: دار الشؤون الثقافية، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م) ٦٥ - ٦٨، ٨٧ وما بعدها. وانظر: منذر الموصلى، الحياة السياسية والحزبية في كردستان: ٦٠، وانظر: د. يوسف الصغير، الأكراد في عالم الاضطهاد، مجلة البيان، لندن، العدد ١٣٤: ٥١ - ٥٢، ولا زال لقب (الكردي) شائعاً في الأردن ومصر وأرتيريا واليمن.

٦٤ انظر: د. إبراهيم الداوقى: مرجع سابق: ١٩٠ - ١٩١، وانظر: د. عثمان علي، "الأسس الفكرية للحركة القومية الكردية"، مجلة آلاي إسلام، العدد ٢، ٣، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ماليزيا: ١٥، وانظر شرف خان بدليس، في تاريخ الدول والإمارات الكردية: ١٣٦ - ١٣٧، وانظر منذر الموصلى، نفس المصدر: ٢٣٩.

الغربي باسم الإصلاح وما سمي (بالتنظيمات) بعد ذلك، ومن طرف آخر كان الروس يعملون على إشاعة أن ما يتم من رفض الأكراد المسلح لبعض التنظيمات هو صراع قومي، وقد ذكرنا خطأ هذا الرأي سابقاً على لسان الشيخ عبد الله النهري. ولكن روج لهذه المقولة وصارت مفردة في الفكر القومي الكردي بعد ذلك ٦٩.

"كما أدت المؤسسات التبشيرية الإنجليزية و الأمريكية و الفرنسية دوراً ريادياً في إعداد جيل متغرب من أبناء الأقليات غير المسلمة ... و دوره في نشر الأفكار اللادينية بين العرب" ٧٠.

وامتد هذا النشاط إلى كردستان حيث "زار المنطقة في الفترة ما بين (١٨٣٠م - ١٩١٤م) حوالي (٤٣) باحثاً إنجليزياً، وفرنسياً، وروسياً، وقام الأمريكان بفتح (٤٥٠) مدرسة في منطقة هيكاري الكردية في تركيا، ومنطقة ولاية الموصل في كردستان العراق لتربية جيل من الكرد والأشوريين على الأفكار الغربية" ٧١.

وثمره لهذه الجهود الاستشرافية التنصيرية التي عززت بدراسات وكتب في مختلف مجالات الحياة في كردستان تبلورت الأفكار القومية في كردستان، ورافق ذلك ظهور بعض الرموز الكردية القومية والذين انتمى بعضهم إلى جمعية الاتحاد والترقي ٧٢.

ومن الذين استجابوا للتأثيرات الفكرية الغربية مقداد بدر خان الذي أصدر جريدة (كردستان) في القاهرة سنة (١٨٩٨م) وكانت تطبع في دارا لهلال الذي يديره (جورجي زيدان) وكان لها نشاط محموم في نشر الأفكار الغربية ودعوة الأكراد إلى تعلم العلوم الغربية في التأريخ والفن والأدب والعلوم الطبيعية، وروجت بين الكرد فكرة ضرورة دراسة تاريخهم والبحث عن هويتهم القومية قبل الإسلام، وكانت الجريدة مدعومة من الإنجليز مادياً وموضوعياً. ومن الغرائب أن الأرمن العدو للأكراد كانوا يقومون بتوزيع المجلة بين أكراد العراق وتركيا ٧٣.

٦٩ انظر: د. عثمان علي، نفس المرجع: ١٦ نقلاً عن: Wadi Jwaidda, The Kurdish Nationalist

Movement, Syracuse, 1967, p. 95؛ انظر د. عثمان علي، نفس المرجع والصفحة نقلاً عن خالقين ن.

خه بات له رتي كوردستان، الترجمة الكردية من الروسية، ١٩٧١م، ونقلاً عن كمال مظهر، كوردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى، دكتور كامرس قفتان، جه ندلينه وه يه ك له ميزوي، بابان، سورات، بوتان، بغداد ١٩٨٢.

٧٠ انظر: د. عثمان علي، نفس المرجع السابق، نقلاً عن C.J. Edmond, The Kurdish, London, 1968,

٧١ انظر د. عثمان علي، نفس المرجع السابق والصفحة، نقلاً عن:

Kamran Badr Khan, The Kurdish Problem, Royal Central Asian Studies, 36, 1949, p. 250.

٧٢ انظر: د. عثمان علي، نفس المرجع السابق: ١٧، وانظر Wadi Jwaidda, p. 298.

٧٣ انظر: د. عثمان علي، نفس المرجع السابق: ١٦ نقلاً عن Kamran Badr Khan, The

Kurdish Problem, and انظر: رامزور، تركيا الفتاة: ٩١.

حقيقة الانتفاضات والثورات الكردية قبل خلع السلطان وبعده:

شهد القرن التاسع عشر ظهور عدة انتفاضات كردية قادتها شخصيات كردية معروفة منهم العلماء ومنهم شيوخ القبائل ومنهم العلمانيون المتغربون ٧٦. ومن أشهر هذه الانتفاضات:

- انتفاضة ميركور الراوندوزي في كردستان العراق في (١٨٣٣م).
 - انتفاضة الأمير بدر خان في كردستان العراق سنة (١٨٤٣م).
 - انتفاضة الشيخ عبد الله النهري في كردستان تركيا عام (١٨٨٢م).
 - انتفاضة ملا سعيد البرزنجي في السليمانية بكردستان العراق.
 - انتفاضة ملا سليم في كردستان تركيا.
 - انتفاضة إبراهيم ملي في كردستان سورية وتركيا.
 - انتفاضة ضد عبد الرزاق بدرخان رئيس (الجمعية الكردية الثقافية) العلمانية التوجه في كردستان تركيا.
 - ثورة قوج كري في كردستان تركية سنة (١٩٢٠م) للمطالبة بتطبيق معاهدة سيفر التي تنص على إقامة حكم ذاتي في تركيا.
 - انتفاضة إسماعيل آغا (سمكو) في كردستان إيران (١٩٢١م).
 - ثورة جمعية (خويون) العلمانية التي ضمت الأكراد والأرمن ضد الحكم التركي الكمالي لتحرير كردستان سنة (١٩٣٠) وبأيد من الدول الأوروبية.
- من خلال هذا التسلسل التاريخي نستطيع رصد طبيعة الثورات والانتفاضات التي وقعت في القرن التاسع عشر والعشرين، والتي حاول مؤرخو الحركة القومية الكردية والمستشرقون في دراساتهم للانتفاضات وبخاصة الروس منهم، تصويرها على أنها صراع قومي بين الأكراد والأتراك، وأما القوميون الأكراد فإنهم يصورونها بأنها من ثمرة تخطيط الحركة القومية العلمانية ٧٧.

٧٦ انظر د. عثمان علي، "الأسس الفكرية للحركة القومية الكردية"، مجلة آلاي إسلام، العدد ٢، ٣، السنة

التاسعة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ١٥، ١٧، ٢٠، ٥٦.

٧٧ انظر نفس المرجع أعلاه: ١٥، وانظر د. عثمان علي، "إشكالية في انتفاضة الشيخ سعيد"، مجلة آلاي إسلام،

العدد ٣، السنة ١١، (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م): ١٠.

وكلها تعبر عن رفض للعلمانية وكلها كانت بعد خلع السلطان عبد الحميد ومجيء جمعية الاتحاد والترقي للحكم وهي تظهر الروح الإسلامية والولاء للسلطان عبد الحميد ٨٢.

رابعاً: وأما ثورة (قوچكيري ١٩٢٠م) في كردستان تركيا فكانت بعد تمكن الحركة الكمالية ومطالبتها بالحكم الذاتي للأكراد الذي ضمنته لهم معاهدة (سيفر) واستمرت هذه الثورة (١٩٢٣م) مما اضطر مصطفى كمال للاعتراف بالحكم الذاتي في مؤتمر صحفي في مدينة أزمير غير أنه لم يف بذلك وبقيت الوثيقة طي الكتمان حتى كشفها مجلة (نحو عام ٢٠٠٠) في عددها (٤٢) الصادر بتاريخ ١١/٢٦/١٩٨٨م ٨٣.

خامساً: وأما انتفاضة إسماعيل آغا الملقب (بسمكو) في كردستان إيران سنة (١٩٢١م) فكانت ضد الحكومة الإيرانية ٨٤ "لأنها كانت تمارس الظلم والعدوان على الكرد" ويستطرد سمكو فيقول: "والآن أنا أبذل قصارى جهدي لتحريرهم من السيطرة الإيرانية" ٨٥ واستمر بعلاقاته الحسنة مع حكومة الاتحاديين لأن الحكم الحقيقي لهم والسلطان كان رمزاً لا أثر له. ولأن الاتحاديين كانوا يزودونه بالسلاح ضد الإيرانيين ومع ذلك فالأكراد كانوا يحترمون السلطان أكثر من الاتحاديين ٨٦.

سادساً: ثورة الشيخ سعيد بيران وهي من أهم الثورات لأنها جاءت في الوقت الذي قام كمال أتاتورك فيه بإلغاء الخلافة نهائياً في ٣/٤/١٩٢٤م، ثم إن الشائع عنها أنها ثورة قومية للحركة الكردية، ولكن الوثائق التي ظهرت في السنين الأخيرة أثبتت إسلاميتها وقيامها لأجل إعادة الخلافة وحكم الشريعة ٨٧.

٨٢ انظر: نفس المصدر أعلاه، الأسس الفكرية للحركة القومية الكردية، حلقة ٢: ١٧، نقلاً عن وادي جويده:

The Kurdish Nationalist Movement, Syracuse, 1967, Population: 95-7.

٨٣ انظر: دكتور إبراهيم الداوقي، أكراد الدولة العثمانية، أعمال المؤتمر العالمي الرابع للدراسات العثمانية حول الحياة الإدارية وبرز القوميات، مراجعة وتقديم د. عبد الجليل التميمي (تونس: مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموروسيكية والتوثيق والمعلومات، زعفران، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م) ١٦٤، وانظر: د. عثمان علي، "حركة الشيخ سعيد ثورة شرعية أم دولة كردية"، مجلة آلاي إسلام، العدد ٣، السنة ١١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م: ١٢.

٨٤ انظر: د. عثمان علي، مصطفى باشا يا ملكي في لقاء تاريخي مع سمكو، وثيقة، رسالة من مصطفى باشا إلى ابنه عبد العزيز بيك بتاريخ ١٢/١٢/١٩٢١م، ورقم الوثيقة: ٥٣٧١/٧٧٨١، مجلة آلاي إسلام، العدد ٢، السنة ١٠، ٤٤-٥١.

٨٥ انظر: نفس المرجع: ٤٥.

٨٦ انظر: نفس المرجع والصفحة.

٨٧ انظر: دكتور عثمان علي، "حركة الشيخ سعيد"، مجلة آلاي إسلام، العدد ٣، السنة ١١، ١٠-١٣.

وخاضت الطريقة النقشبندية بقيادة سعيد بيران الثورة ضد الحكم الكمالي، وكان خطاب الثورة خطاباً إسلامياً وقد نشرت وثيقة لجلسة سرية لمجلس أركان الحرب التركي أقر فيها دراسة الحركة من خلال الوثائق وشهادات الشهود بأن ثورة الشيخ سعيد كانت ثورة إسلامية تريد إعادة الخلافة والشرعية وعُمم ذلك القرار المرقم (١٨٤٥) على جميع الإدارات الحكومية المعنية ٩٢.

وحاولت الحكومة تشويه الحركة ووصمها بأنها قومية من خلال محاكمة قادة الحركة القومية مع الشيخ سعيد ورفاقه، وكذلك لإثارة القوميين الأتراك وعزل الثورة عن المسلمين الترك. فضلاً عن اتهامها بالعلاقة بالجهات الأجنبية ويقصد بهم الإنجليز. ولكن رد الشيخ سعيد هو:

"يشهد الله أن الثورة لم تكن من صنع السياسيين الكرد - يعني القوميين - ولا من تدخل الأجانب" ٩٣.

وعندما سئل: هل تريد أن تصبح خليفة؟

أجاب: إن وجود الخليفة ضماناً أساسية لتطبيق قواعد الدين وإن المسألة مطلوبة شرعاً.

وسئل: هل كان إعلانكم للعصيان يعني أنكم وصلت إلى قناعة تامة بأن الشريعة غير مطبقة في البلد؟

فأجاب: إن الكتاب - القرآن - يؤكد على الخروج على الحاكم في الظروف التي أشرنا إليها أعلاه، وتطبيق الشريعة يعني منع القتل والزنا والمسكرات ... الخ، وبمحمد الله كلنا مسلمون ولا يجب التمييز بين الكرد والترك وحسب اعتقادنا أن هذه الأمور حالياً متروكة أننا انطلقنا من هذه القناعة وعلى أساس القرآن الكريم ٩٤.

٩٢ انظر: الدكتور أحمد النعيمي، الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا حاضرها ومستقبلها، ٧٨، وانظر:

.Andrew Mango, Turkey, Thames and Huom, 11d, London, 1968, p. 53

وانظر: مصطفى محمد، الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا، ألمانيا الغربية (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م)، وقال: إن الشيخ سعيد بيران أعلن حركته باسم الله واتخذ له راية خضراء هي راية النبي صلى الله عليه وسلم كما حمل شعاراً لتحيا الخلافة ولتسقط الجمهورية وكان يتلقب بخادم المجاهدين. وانظر: الدكتور عثمان علي، الإشكالية في الانتفاضة: ٢٦.

٩٣ انظر: د. عثمان علي، الإشكالية في الانتفاضة: ٢٧.

٩٤ المرجع السابق: ٢٨.

النورسي وثقافة العصر

الإمام النورسي جوهره منشورية تنعكس فيها ألوان الطيف كلها في تناسق وانسجام وكذلك كانت حياته، فهو الطالب الذكي الوقاد الحافظة، ثم سعيد المشهور بعلمه في وسط أهله وذويه من أهل الأناضول، ثم نال لقب بديع الزمان بعد أن أضاف إلى علمه الأصيل علوم العصر بأنواعها فأخذ من كل فن قسطاً وأتقنه فصار مدرّكاً لمسار الثقافة في عصره ولا سيما وأنه قد درس العلوم المعاصرة من مصادرها الغربية في الرياضيات والفلسفة والجيولوجيا والجغرافية والتاريخ والفيزياء .. حتى صار أعجوبة زمانه ٩٩.

إدراكه للخطر الثقافي:

ومع شغفه العلمي لم يتحول هذا الشغف والحب إلى ترف فكري وشهوة ذاتية، وإنما كان علمه للعمل وكانت الفترة التي يعيشها فترة صراع فكري بين غرب فتي تقني يتطلع إلى قيادة البشرية بعد أن أخذها المسلمون من الدولة القيصرية والكسروية وقادوا العالم برسالة الإسلام.

ولكن القانون المستمر بين الحق والباطل ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ ١٠٠.

و قانون التدافع سنة كونية لضبط حركة الصراع ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتِ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ ١٠١.

لذلك بدأ الغرب يخطط لأخذ قيادة البشرية مرة أخرى لتكون في يده. وكان الإمام النورسي حاضر القلب والذهن لهذه المخططات وقد زادها توقداً عندما قرأ تصريح ولیم غلادستون (ت ١٨٩٨م) ١٠٢ - وزير المستعمرات البريطاني في ذلك الوقت ورئيس الوزراء بعد ذلك - أمام مجلس النواب البريطاني وهو يحمل المصحف بيده فيقول:

"ما دام هذا القرآن موجوداً في يد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم فيما أن نأخذه من يد المسلمين أو نقطع صلتهم به" ١٠٣.

٩٩ د. أحمد نوري النعيمي، الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، مرجع سابق: ٥٧.

١٠٠ سورة البقرة، رقم الآية ٢١٧.

١٠١ سورة الحج، رقم الآية ٤٠.

١٠٢ ولیم إیوارت جلاستون (١٨٠٩ - ١٨٩٨م) سياسي بريطاني تولى رئاسة حزب الأحرار (١٨٦٨م) وصار رئيساً للوزارة فضلاً عن مناصب وزارية أخرى، الموسوعة الثقافية، ٢٥٢.

١٠٣ انظر: أورخان محمد علي، سعيد النورسي رجل القدر في حياة أمة مشرقة (استانبول: التسلي للطباعة، ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م) ٢٦، وانظر:

ثالثاً - تفكيره في إنشاء جامعة إسلامية عصرية:

فكر الإمام النورسي في إنشاء جامعة إسلامية تجمع بين علوم الشرع والعلوم العصرية للوقوف أمام الغزو الفكري، ولتخرج جيلاً جديداً من المثقفين الذين يستطيعون أن يحاوروا أبناء عصرهم ويواجهوا شبهات أعدائهم ويستنبطوا الأحكام المناسبة للحوادث المستحثة. وأن يخرج جيلاً من القادة الفكرين والعلماء المتورين لقيادة الأمة.

وأن يكون مكانها في شرق الأناضول في كردستان على ضفاف بحيرة وان، وكان ذلك سنة ١٩٠٧ وعرض المشروع على السلطان عبد الحميد الثاني دون أن يلتقي به ولكنه أوصل إليه مقترحه بالنسبة للجامعة ومطالبه الأخرى الإصلاحية، ولكن يبدو أن السلطان أخطأ في فهم مطالبه أو وشى به أحد إلى السلطان فأصابه الضرر، ومع ذلك فإنه كان يكن الاحترام للسلطان عبد الحميد وكان يقول: "السلطان عبد الحميد خليفة لستين مليوناً من المسلمين وأنا أعده ولياً من أولياء الله" ١٠٧.

رابعاً - دعوته إلى إنشاء مدراس في جميع أنحاء تركيا:

تعلم العلوم الإسلامية والعصرية كما طالب بإصلاح طرق التدريس والمناهج. لإحساسه بأهمية ذلك في إعداد أجيال تستطيع الوقوف أمام التحدي الثقافي الذي تمارسه الإرساليات التبشيرية، وما تنشره الكتب والنشريات من الأفكار الهدامة. وقد تنبه السلطان عبد الحميد لهذه الفكرة وقام بإنشاء المدارس في كل مكان في الدولة العثمانية وخارجها وكان ثمرة هذا الاقتراح إنشاء أول مدرسة في الصين بطلب من الداعية عبد الرشيد إبراهيم ١٠٨.

نخلص من هذا أن الإمام النورسي رأى أن الخطوة الأولى لمواجهة التحدي هي التسليح بالعلم الممدوح الذي يتضمن معارف العصر التي تدرس بضوابط الإسلام عقيدة وشرعية.

بديع الزمان النورسي ومواجهته للتيار القومي:

لقد أدرك الإمام النورسي من خلال الظواهر التي بدأت في الساحة التركية أن التوجه هو التركيز على الطورانية كما أسلفنا وادعاء أن الجنس والعنصر عندما يحكم

١ - القومية السلبية: فقال عنها: "وهو قسم سلبى مشؤوم مضر يترتب وينمو بابتلاع الآخرين ويدوم بعداوة من سواه ويتصرف بجذر وهذا يولد المخاصمة والتراع، ولهذا ورد في الحديث الشريف «أن الإسلام يجب ما قبله» ويرفض العصبية الجاهلية، وأمر القرآن الكريم بـ «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» (الفتح: ٢٦) فهذه الآية الكريمة والحديث الشريف يرفضان رفضاً قاطعاً القومية السلبية وفكر العنصرية. لأن الغيرة الإسلامية الإيجابية المقدسة لا تدع حاجة إليها" ١١١.

وقد عدد الأستاذ النورسي بعضاً مما سماه بأضرار القومية السلبية في العالم الإسلامي وأوروبا.

٢ - القومية الإيجابية: والتي وصفها بأنها "النابعة من حاجة داخلية للحياة الاجتماعية وهي سبب للتعاون والتساند، وتحقق قوة نافعة للمجتمع وتكون وسيلة لإسناد أكثر للأخوة الإسلامية ... هذا الفكر القومي الإيجابي، ينبغي أن يكون خادماً للإسلام، وأن يكون قلعة حصينة له وسوراً منيعاً، لا أن يحل محل الإسلام، ولا بديلاً عنه، لأن الأخوة التي يمنحها الإسلام تتضمن ألوف أنواع الأخوة ... ولهذا فلا تكون الأخوة القومية مهما كانت إلا ستاراً من أستار الأخوة الإسلامية ... " ١١٢.

وبالإضافة إلى محاولته أن يبين سلبيات الأولى وإيجابيات الثانية والتي لا تتنافى وعقيدتنا الإسلامية، فإنه فرق بين المدنية الحاضرة والمدنية التي تتضمنها الشريعة الأحمدية في خمس خصائص لكل منهما فقال عن جهة الوحدة في الأولى: "الرابطه الدينية والوطنية والصنفية بدلاً من العنصرية والقومية وهذه الرابطه من شأنها الأخوة المخلصة والمسالمه الجادة والدفاع فقط عند الاعتداء الخارجي".

ووصف رابطه المدنية الحاضرة الثانية بين الكتل البشرية بأنها: "العنصرية والقومية السلبية التي تنمو وتتوسع وشأنها التصادم الرهيب" ١١٣.

١١١ المكتوبات: ٤١٤.

١١٢ المكتوبات: ٤١٥ — ٤١٦.

١١٣ المكتوبات: ٦٠٧.

بل إنه اعتبر من يعمل باسم "الأمة وفي سبيل القومية لأجل تقوية العنصرية" من "أهل البدع الهدامين" في إشاراته حول الآية الكريمة: ﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٨) ١١٤.

وطرح تساؤل عليه حول من أقوى وأولى بالالتزام؟ الحماية الدينية أم المالية القومية؟ فقال لمن سألته وكان ممن تعلم العلوم الحديثة:

"نحن معاشر المسلمين، الدين والمالية عندنا متحدان بالذات، والاختلاف اعتباري، أي ظاهري عرضي، بل الدين هو حياة المالية وروحها فإذا ما نظر إليهما بأهما مختلفان ومتباينان فإن الحماية الدينية تشمل العوام والخواص بينما الحماية المالية تنحصر في واحد بالمائة من الناس ممن يضحى بمنفعته الشخصية لأجل الأمة، وعليه فلا بُدُّ أن تكون الحماية الدينية أساساً في الحقوق العامة، وتكون المالية خادمة منقادة لها وسائدة حصينة لها ... فنحن الشرقيين لا نشبه الغربيين، إذ المهيمن على قلوبنا الشعور الديني، فإن بعث الأنبياء في الشرق يشير به القدر الإلهي إلى أن الشعور الديني وحده هو الذي يستنهض الشرق ويسوقه إلى الرقي والتقدم..." ١١٥.

وهكذا لم يستطع الإمام النورسي أن يقف مكتوف الأيدي فخرج من شخصيته (سعيد الجديد) المعتزل المتأمل إلى شخصية (سعيد القديم) أي الناصح الناقد للأمر السياسي والاجتماعية ليكتب بحثاً مفصلاً عن القومية، فقال: "اضطرت إلى كتابة هذا المبحث بنية خدمة القرآن العظيم وعلى أمل إنشاء سد أمام المحجمات الظالمة" ١١٦.

الإمام النورسي في مواجهة تحديات الاتحاديين:

جاءت جمعية الاتحاد والترقي إلى سدة الحكم بانقلاب سلمي سنة (١٩٠٨م) وهو ما سمي بالمشروطية، وكان النورسي في مدينة سلانيك في هذا الوقت والتقى ببعض قادة الاتحاد والترقي ومنهم (قره صو) اليهودي الماسوني المشهور وحاول (قره صو) ضم النورسي إلى جمعية الاتحاد والترقي ولكنه فشل في ذلك بل قال: "كاد أن يجعلني مسلماً..!!" ١١٧.

١١٤ المكتوبات: ٥٦٦.

١١٥ بديع الزمان سعيد النورسي، الخطبة الشامية، ترجمة وتحقيق إحسان قاسم الصالحی (استانبول: سوزلر، ١٤٠٩

هـ - ١٩٨٩م) ٧٧.

١١٦ المکتوبات: ٤١٣ - ٤١٤.

۱۱۷ اورخان محمد علی: مرجع سابق: ۳۸.

وعندما أعلن الدستور (المشروطة) وقف النورسي خطيباً في سلاتنيك يؤيد ذلك لإيمانه بالحرية والشورى ١١٨.

وبدأت ظواهر الفساد تدب وتبرز إلى السطح بعد أن خدعت كثيراً من المفكرين بكلام معسول عن الاستبداد والحرية والمساواة والإخاء...!! وبدأ سيل الصحف يمارس دوراً جديداً للترويج للعلمانية والأفكار الغربية وتجاوز الأمر إلى ظهور المقالات والكتب الإلحادية، لأن الميدان قد خلا بعد السلطان عبد الحميد للمفتونين بالحضارة الغربية ومن الصحف التي شاعت (الفلسفة) (الذكاء) (البيان) ١١٩.

ولذلك بادر النورسي إلى الانضمام إلى جمعية (الاتحاد المحمدي) التي أسسها بعض أهل الغيرة من وجوه المجتمع لمواجهة الأفكار الجديدة التي بدأت تدندن حول القومية التركية وتجعلها المنطلق وتروج للطورانية ١٢٠ كما بينا في المبحث الخاص بالقومية التركية.

وحضر الإمام النورسي اجتماع الافتتاح وألقى خطبة حث فيها على التمسك بالإسلام وتكلم بالقضايا المهمة ١٢١، "وفي هذه الصفحة يبدأ كفاح بديع الزمان في خط الاتحاد الإسلامي" ١٢٢.

وقد حاولت جمعية الاتحاد والترقي أن تغريه لقبول عضويتها وكان مصطفى كمال أتاتورك هو الذي دعاه لذلك ولكنه أجاب بقوله: "إنني أريد أن أجاهد في أخطر الأمكنة وليس من وراء الخنادق وأنا أرى أن مكاني هذا أخطر من الأناضول".

وأول احتكاك مع الانقلابيين كان عند وصوله إلى مجلس النواب سنة (١٩٢٢م) فوجد أن معظم النواب لا يؤدون الصلاة فصرخ صرخته:

"يا أيها المبعوثون إنكم مبعوثون ليوم عظيم" وغضب مصطفى كمال لذلك فقال: إننا بحاجة إلى أستاذ قدير مثلك، لقد دعوناك إلى هنا للاستفادة من آرائك المهمة،

١١٨ المرجع نفسه: ٣٧.

١١٩ المرجع نفسه: ٣٨.

١٢٠ المرجع نفسه: ٤٠.

١٢١ المرجع السابق نفسه.

١٢٢ د. حسين حليك، مرجع سابق: ٥٣٨.

وحدث على الأخوة الكردية التركية بقوله: "الأتراك هم عقلنا ونحن قوتهم" وأن الحياة الاجتماعية للأكراد مرتبطة بحياة وسعادة الأتراك ١٢٥.

وقوله: "يا أيها الأخ التركي احذر وانتبه!! أنت بالذات فإن قوميتك امتزجت بالإسلام امتزاجاً لا يمكن فصلها عن الإسلام، ومتى حاولت عزلها عن الإسلام فقد هلكت إذاً وانتهى أمرك ألا ترى أن جميع مفاخرك في الماضي قد سجلت في سجل الإسلام وأن تلك المفاخر لا يمكن أن تمحي من الوجود قطعاً فلا تمحها أنت من قلبك؟! ١٢٦".

وينقل حسه ككردي بكل إخلاص ليزيل ركاب القومية عن قلب أخيه التركي فيقول: "قلت لأحد طلابي الأكراد الغيورين: لقد خدم الأتراك الإسلام كثيراً، فكيف تراه؟ قال: إني أفضل تركيا مسلماً على شقيقي الفاسق".

وعندما سألته بعد سنين حين درس في استانبول ولمس العنصرية التركية وسأل السؤال نفسه فقال: إني أفضل الآن كردياً فاسقاً ... على تركي صالح!!

ولذلك كان الأستاذ النورسي يكرر كلامه في نصيح الأتراك لأنهم أهل الشوكة ولا زالت الدولة العثمانية تحت إدارتهم مع وجود السلطان وإن كان بصورة رمزية ويحذرهم من الملحدين الذين يتحركون باسم القومية من اليهود والماسون فيقول: "أقول لأولئك الملحدين .. المتسترين تحت ستار التركية وهم في الحقيقة أعداء الأمة التركية أقول لهم: إني على علاقة وثيقة جداً بمؤمني هذا الوطن الذين يسمون بالأتراك المرتبطين ارتباطاً قوياً، وبأخوة صادقة أبدية حقيقية باسم الإسلام لأبناء هذا الوطن الذين رفعوا راية القرآن خفاقة عزيزة في ربوع العالم أجمع زهاء ألف عام، أما أنت أيها المخادع المدعي فليس لك إلا أخوة مجازية غير حقيقية ومؤقتة مبنية على العنصرية والأغراض الشخصية" ١٢٧.

وقد تخلّى الأستاذ النورسي عن لقبه (الكردى) الذي كان يستخدمه كي لا يؤدي ذلك إلى الاستغلال العنصري فترك لقب (كردى) واتخذ لقب (نورسى) نسبة إلى قريته ومسقط رأسه.

١٢٥ المرجع نفسه: ٤٤٣.

١٢٦ المكتوبات: ٤١٧.

١٢٧ د. حسين جليك، مرجع سابق: ٥٤٥.

أما في الإسلام فلم يصبح الدين سبباً للتراع الداخلي إلا مرة واحدة، وقد ترقى المسلمين - بالنسبة لذلك الوقت - رقياً عظيماً ما ملكوا الدين واعتصموا به.

ثم إن الإسلام حامي الفقراء والعوام من الناس.

وإن الإسلام يحمي أهل العلم ويستشهد العقل والعلم ويوقظهما في النفوس.

إن أساس الإسلام التوحيد الخالص فلا وسائط. أما في النصرانية فإن فكرة البنوة تعطي أهمية للوسائط" ١٣١ .

خطاب الشيخ النورسي للأكراد:

وكان الشيخ بديع الزمان النورسي الكردي يحس بمشاعر قومه وحاجتهم إلى العناية من ناحية التعليم والثقافة فلذلك قدم مطالبه للسلطان لتطوير شرق الأناضول.

فضلاً عن تقديمه النصح لقومه وكان يرى ابتداءً أن الحركة القومية عامة من صنع الأوروبيين واليهود، فكان الأستاذ النورسي حازماً في هذا الأمر لا يساوم فيه حتى مع الأكراد، وردّ على أحد المشايخ اسمه عمر أفندي حول الحركة الكردية بقوله: "إن مثل هذه الحركة وهذا التصرف مخالف للشرعية، وأغلب الظن أن مصدرها ومثيرها الأصابع الخارجية لا يمكن جعل المطالبة بالشرعية آلة وذريعة لمخالفة الشرعية نفسها" ١٣٢.

وقال لمجموعة من الشيوخ الأكراد من مدينة وان: "هل جئتم بأفكار سلبية مرة أخرى؟ إن الأمة التركية ترعمت الإسلام على أحسن ما يرام وتترزع هذه الأمة الإسلام بعد الآن فتخلوا عن تلك الحركات السيئة" ١٣٣.

ثم وصلت رسالة من الشيخ سعيد بيران نفسه يدعو للاشتراك في الثورة فرد عليه في رسالة بقوله: "نحن مسلمون والأتراك إخواننا فلا تجعلوا الأخ يقتل أخاه فهذا لا يجوز شرعاً، إن السيف لا يشهر إلا بوجه الأعداء الخارجين فلا يستعمل السيف في الداخل، إن السبيل الوحيد أماناً للخلاص - فبين له منهجه في التغيير - في هذا الزمان هو القيام بإرشاد

١٣١ المكتوبات: ٤١٩.

١٣٢ أحمد النعيمي، الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا: ٨٠.

١٣٣ المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

صعدت هذا المنبر ... لأرشدكم فشأننا معكم شأن الصبيان مع الكبار فنحن تلامذة بالنسبة إليكم وأنتم أساتذة لنا ولسائر أمة الإسلام" ١٣٧.

"وإنما حازت جميع قبائل الإسلام وفي مقدمتها طوائف الترك والعرب نوعاً من السعادة الدنيوية بتسليمهم الأمر إلى الله والرضا بقضائه وقدره ورؤية الحكمة وتلقي دروس العبرة من الحوادث بدل الرهبة والهلع لها" ١٣٨.

وقال مذكراً لإخوانه العرب بمسؤولياتهم وواجباتهم تجاه إخوانهم الترك والقوميات الأخرى، قائلاً لهم:

"لا يذهب بكم الظن أنني صعدت هذا المنبر لأرشدكم وأنصحكم بل ما صعدته إلا لأذكر حقنا عليكم وأطالبكم به إذ أن مصالح الطوائف الصغيرة ١٣٩ وسعادتها الدنيوية والأخروية ترتبط بأمثالكم من الطوائف الكبيرة العظيمة والحكام والأساتذة من العرب والترك فإن تكاسلتم وتحاذلتم يضران بإخوانكم من الطوائف الصغيرة من أمثالنا أيما ضرر" ١٤٠.

"إنني أوجه كلامي هذا بوجه خاص إليكم يا معشر العرب العظماء الأماجد ويا من أخذتم من التيقظ خطأ أو ستستيقظون تيقظاً في المستقبل لأنكم أساتذتنا وأساتذة جميع الطوائف الإسلامية وأئمتها" ١٤١.

"يا إخواني الذين يضمهم هذا الجامع الأموي ويا إخواني في جوامع العالم الإسلامي! اعتبروا أنتم أيضاً وقيموا الأمور في ضوء الأحداث الجسام التي مرت خلال السنوات الخمس والأربعين الماضية، كونوا راشدين يا من يعدّون أنفسهم من أولي الفكر والعلم" ١٤٢.

وفي ظل ما كان يعانيه العالم الإسلامي من صراعات بما فيهم من الشعوب العربية

١٣٧ المصدر السابق: ٣٢.

١٣٨ المصدر السابق: ٨٢.

١٣٩ الطوائف الصغيرة: القوميات الصغيرة.

١٤٠ النورسي، الخطبة الشامية: ٦٩.

١٤١ المصدر السابق نفسه.

١٤٢ المصدر السابق: ٣٨.

والأخروية" ١٤٥.

وكان قد استشراف منذ وقت مبكر بدايات ظهور الصحوه الإسلامية بعد ظهور الترعات القومية والانفصالية وغيرها في الدولة العثمانية ، فوجه خطابه إلى العرب وأعلن بيقين أن المستقبل سيكون للإسلام ولن يكون لغيره من دعاة الفكر القومي والعلماني قائلًا:

"يسرني أن أزف إليكم البشرى يا معشر المسلمين بأنه قد أزف بزوغ أمارات الفجر الصادق ودنا شروق شمس سعادة عالم الإسلام الدنيوية ، وبخاصة سعادة العثمانيين ، ولا سيما سعادة العرب الذين يتوقف تقدم العالم الإسلامي ورقية على تيقظهم وانتباههم" ١٤٦.

"فإنني أعلن بقوة وحزم بحيث أسمع الدنيا كلها نافياً اليأس والقنوط مؤكداً أن المستقبل سيكون للإسلام وللإسلام وحده وإن الحكم لن يكون إلا لحقائق القرآن والإيمان، لذا فعلينا الرضا بالقدر الإلهي وبما قسمه الله، إذ لنا مستقبل زاهر وللأجانب ماض مشوش مختلط" ١٤٧.

ثم نبه العرب بقوله : "وها قد أخذت الحجب التي كانت تكسف شمس الإسلام تتراح وتنقشع ، وأخذت تلك المواضع بالانكماش والانسحاب، ولقد بدأت تبشير ذلك الفجر منذ خمس وأربعين سنة" ١٤٨.

"وها قد بزغ فجرها الصادق سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة وألف هجرية أو هو على وشك الزوغ وحتى إن كان هذا الفجر فجرًا كاذبًا فسيطلع الفجر الصادق بعد ثلاثين أو أربعين عاماً إن شاء الله" ١٤٩

١٤٥ المصدر السابق نفسه.

١٤٦ المصدر السابق : ٣١ - ٣٢.

١٤٧ المصدر السابق: ٣٢.

١٤٨ المصدر السابق : ٣٢.

١٤٩ المصدر السابق نفسه.

٣ = دور أهل الغيرة في مواجهة التحدي القومي بتحدٍ مخالف مبني على الأصالة الإسلامية.

٤ = الكشف عن منهجية الإمام بديع الزمان النورسي في مواجهة الانحراف عن الإسلام بالمنهج القرآني وتفنيد الدعوة القومية والتأكيد على الأخوة الإسلامية. ولعل البحث بهذا العرض قد بيّن بداية ظهور القوميات ومواجهة الإمام النورسي لذلك بأصالة واجتهاد مكافئ للواقع المحيط به.